الكيانات السياسية في الجزائر القديمة (الممالك البربرية)

نشأت بعض المدن على غرار قرطاجة، ولكن واقع البلاد كان متكونا من أراضي القبائل والكنفدراليات. فالقرية كانت هي الإطار العادي لمعيشة المستقرين أكثر من المدينة. وكان تحت تصرف الرحل الأكثر ...مجالات واسعة من البلاد.

إننا لا نعرف في أي عصر انتظمت الممالك الأولى وأقدمها قد تكون **مملكة يارباس** في القرن الخامس، العهل الذي أراد أن يتزوج من **ديدون** حسب أسطورة بناء قرطاجة. ويتردد الكلام كذلك عم ملك موري وعن شخص اسمه **ايليماس** ملك الليبيين. ومن الرؤساء الأوائل للماسيل **دكرنارافاس** الذي كان يقود النوميديين في أراضي خارج أملاك قرطاجة. وكانت **المملكة الماسيلية** موجودة ابتداء من القرن الرابع، يسجل في **القرن الثالث وجود كنفدراليتين** على أراضي الجزائر الحالية.

* مملكة الماسيسيل من مولوشة (ملوية) إلى الأمساغا (الوادي الكبير) بعاصمتها سيغا (بالقرب من تافنة).

* مملكة الماسيل في شرق الأمساغا حتى التراب القرطاجي بعاصمتها هيبوريجيوس أوزاما.

من المؤكد أن الحدود بين الماسيسيل والماسيل قد تغيرت مرات عديدة، وقد بذلت قرطاجة مجهودها للحصول على صداقة وتحالف المملكتين بهدف التزود بالمرتزقة وضمان الأمن حول مراكزها التجارية، غير أن الملوك البربر لم يكونوا أتباعا طيعين كما تمنت قرطاجة وروما. حارب ملك ماسيليا غايا (جايا) أب ما سينيسا أول الأمر القرطاجيين الذين أخذ منهم أراضي قبل أن يكون حليفهم، كما حارب سيفاقس القرطاجيين في أول الأمر، وكان ماسينيسا في خدمة قرطاجة في إسبانيا في 206 ق.م، ثم انتقل إلى غفريقيا وعرض بعد ذلك خدماته على سيبيون.

لا نستطيع أن نتخيل الكيان السياسي فيما يخص المملكة النوميدية في بدايتها الأولى إلا في شكل تتقاسمه الصراعات بين مجموعات إقليمية أو اتحاد كنفدراليات عرقية برزت في شكل مجموعتين هامتين تتقاسمان المنطقة الممتدة ما بين نهر الملوية غربا وخليج سرت شرقا، وتتمثلان في قبائل المازسيل أو نوميديا الغربية وكذا قبائل الماسيل أو نوميديا الشرقية. ويبدو أن اتباع سياسة الصراع بين الإخوة الأعداء؛ كان الأسلوب المفضل بين مجموعتني القبيلتين المتجاورتين، كما ترتب عنه عدم ايجاد حدود قارة تفصل بينهما.

أولا- مملكة نوميدي الغربية "مازسيليا":

كانت أول أخبار وصلتنا عن مملكة **المازسيل** تعود إلى حوالي 213 ق.م؛ حيث يذكر **بوليبيوس** بأن القرطاجيين كانت تربطهم صداقة متينة مع الملك **سيفاقس** قبل هذه الفترة، وأن المازسيليين كانوا يكونون جزءا من الجيش القرطاجي في إسبانيا وبلاد المغرب القديم. وكان هدف قرطاجة من وراء تلك الصداقة هو لمحافظة على استمرار الاتصال بجيوشها في اسبانيا عن طريق هذا الجار القوي. ويخبرنا **سترابون** أن أراضي المور كانت تتبع أراضي الماسيسيل التي تبدأ من نهر **مولوشة** ونتهي عند **رأس تريتون؛** فالنهر يمكن أن يكون **نهر ملوية** أما الرأس فهو **رأس بوقرعون.** فالماسيسيل كانوا يشغلون إذن المغرب الشرقي وثلثي الجزائر. وإذا كان **تيت ليف** يسجل سيرتا عاصمة لمملكة سيفاقس في سنة 203 ق.م، فإن المؤلفين يشيرون إلى الأهمية التي أولاها العاهل خلال السنوات السابقة لإسبانيا وغرب البلاد إذن **سيغا** هي المناسبية لتكون عاصمة لمملكة ماسيسيليا، فعلا هناك استقبل في 206 ق.م سيبيون وأسد روبال. زيادة على ذلك فإن العديد من قطع النقود تعود لسيفاقس قي سيغا، ويبدو أنه في ذلك العصر فقط تمكن الملك من صك العملة. فالمجموعتان النقديتان اللتان تحملان صورة سيفاقس وصورة ابنه فرمينا تظهران الملك في كل مرة محزما بإكليل. فكان سيفاقس إذن على رأس قبائل الغرب وإنه لمن هذه المقاطعة الغربية الأكثر ازدهارا

كان يحصل على الفضة والجنود. إنه أول قائد بربري ظهر كملك فعلا وأول ملك صك النقود. عاهل قوي كان يجعله حمل الإكليل ... بالملوك. ومن جهة أخرى يشير **تيتوس ليفيوس** بأن علاقة الصداقة بين قرطاجة ومملكة **سيفاقس** لم تستمر على ما هي عليه بل حصل هناك خلاف بين الدولتين أدى إلى وقوع حرب بينهما من جراء انحياز قرطاجة إلى جانب الملك **غايا** ملك نوميديا الشرقية . ذلك لأن قرطاجة أدركت خطأ سياستها اتجاه **سيفاقس** الذي بدأ يميل نحو أعدائها الرومان فعدلت خطتها السياسية وتراجعت عن مناصرة الماسيل، وأكثر من ذلك اقتربت أكثر من سيفاقس فزوجته بالأميرة القرطاجية صفونيزبة التي أصبحت تشاركه الحكم. وقد حاول سيفاقس بعد ذلك أن يحسن إلى قرطاجة فأعادلها الأملاك التي اقتطعها من **غايا** أثناء حروبه معها سنة 220 ق.م، ثم حاول من جهة أخرى أن يتوسط بينها وبين روما في النزاع القائم بينهما. ذلك أن أمن شمال إفريقيا في رأي سيفاقس بات مهددا، وأن الممالك النوميدية والموريطانية ستدفع ثمن الاصطدام العسكري بين قرطاجة وروما إن عاجلا أم آجلا. لذلك انتقلا سيبيون إلى مدينة سيقا عاصمة **سيفاقس** والواقعة على نهر التافنة ملبيا طلب سيفاقس ما دام الأمر يهم مصلحة الرومان. وفي نفس المدينة التقى بالقائد القرطاجي **صدر بعل بن جيسكون** في ضيافة الملك سيفاقس. وقد تفاوض الثلاثة (**مؤتمر سيقا الدولي سنة 206 ق.م)** في شؤون إنهاء العداوة التقليدية والحرب الدائرة بين روما وقرطاجة على السيادة على البحر المتوسط. إلا أن القائد الروماني سيبيون صرح أنه لا يستطيع البت في قضية يعود الحل والعقد فيها لمجلس الشيوخ والشعب الروماني.وبذلك تفرق الجميع دون إيجاد حل لتلك الحرب التي أقلقت الجميع. وفي الحقيقة كان سيفاقس يدرك ويلات تلك الحرب إذا انتقلت إلى شمال إفريقيا. ذلك أنه يتصف بالرزانة وحصافة النظر وتغليب العقل على العاطفة في كثير من الأحيان. وكان نموذج الدولة الذي يسعى سيفاقس إلى تطبيقه في مملكته مو تقليد المؤسسات الدستورية القرطاجية وكذلك اضفاء الطابع الهلينيستي من حيث المظهر ولا سيما فيما يخص الملك شخصيا؛ الذي كان دوره يتسم بالحكمة والتعقل اللذين يتصف بهما رؤوساء القبائل في نوميديا حينذاك. ولعله يتفوق عليهم بالدهاء السياسي ومرونة ربط العلاقات مع جيرانه الأق **سيفاقس يوحد نوميديا لأول مرة:** طبق **سيفاقس** نظام اللامركزية من حيث التنظيم الإداري في مملكته بعد توحيدها، حيث كانت عاصمتها **سيقا** و**سيرتا** تسيران من قبل موظفين سامين محليين يعينهم الملك بالإضافة إلى مجالس شبه قبلية ورجال دين، ثم جباة ضرائب وضباط في الجيش يشترط فيهم أن يكونوا موالين للملك. عمل سيفاقس على سك عملته الخاصة في مدينة سيقا وكان له بها معمل خاص بضرب العملة. كما أن عاصمته سيقا على نهر التافنة وسيرتا على نهر الرمال كانتا تمثلان عصب الحياة في مملكته؛ حيث كان يستقبل فيهما السفراء والمبعوثين الخاصين والرؤساء الذين كان يتعامل معهم.ورؤساء مقاطعات المملكة من أمراء ورؤساء قبائل، حيث كان يزودهم بالتعليمات الضرورية لتسيير شؤون المملكة. أدت هذه السياسة التي سلكها سيفاقس إلى ازدهار الدولة النوميدية الغربية واتسعت رقعتها بعد أن بدأت تميل إلى القرطاجيين في صراعهم مع الرومان. لذلك عمل إلى جانب قرطاجة للحد من نشاط **ماسينيسا** في المنطقة والحيلولة دون تقربه من الرومان خاصة مع بداية تحركاته بعد وفاة والده غايا محاولا الوصول إلى كرسي العرش. كل تلك المعطيات أفضت إلى إمضاء تحالف بين القرطاجيين والملك سيفاقس التزم فيه هذا الأخير بأنه في حالة مهاجمة الرومان لشمال إفريقيا، فإن الجيش المازسيلي سيحارب إلى جانب القرطاجيين. وياء. عندما اشتدت ايذاءات ماسينيسا لقرطاجة وحلفائها في ماسيليا، كلفت الملك سيفاقس بحكم المصاهرة والتحالف لرد تلك الاعتداءات، وذلك نظرا لانشغاله أيضا بالحرب الثانية بين روما وقرطاجة. وقد أوعز سيفاقس لقائده بوكار بتنفيذ المهمة حيث شتت جيوش ماسينيسا الذي أصيب بجروح بليغة. هذا الأخير عاد إلى حرب العصابات بعد أن التأمت الجراح فاحتل المنطقة الواقة بين عنابة وسيرتا، ثم بدأ يزحف نحو الغرب . ولما أدرك سيفاقس تهديداته هاجمه إلى جانب ابنه فارمينا بجيوش كبيرة أفقدت ماسينسا كل ما يملك من جنود ويفر مع زمرة قليلة إلى الأقاصي البعيدة من خليج السرت بليبيا الحالية. إن العاهل النوميدي كان يبحث عن ايجاد سلام ملائم للمشكل الذي اعترض قرطاجة دون أن يسيء

إلى علاقته مع الرومان، وذلك وفقا لما جرت عليه العادة منذ سنة 2013 ق.م. وهو التاريخ الذي اتصل فيه لأول مرة بقائد الجيش الروماني سيبيون في إسبانيا. هذا قبل نقل الحرب إلى شمال إفريقيا. أما بعد ذلك فقد أصبح الوضع يحتم عليه أن يتخذ القرار الحاسم. وفعلا فقد اختار الجانب القرطاجي الذي كان مصير بقاء مملكته مرتبطا به إلى حد بعيد. ويرجع بوليبوس سبب فشل سيبيون ثني سيفاقس عن مناصرة القرطاجيين إلى قوة شخصية صوفونيزبة التي كانت تشاطره الحكم ضمنيا؛ غير أن هذا لا يخلو من مبالغة. ..وهكذا فإنه عشية معركة السهول الكبرى التي يدخل فيها سيفاقس الحرب لأول مرة إلى جانب القرطاجيين ضد الرومان، كانت مملكة نوميديا بجزأيها الغربي والشرقي موحدة تحت لواء الملك سيفاقس وكانت حدودها تمتد من من نهر الملوية (ملوشة) غربا حتى أملاك الدولة القرطاجية شرقا. غير أن ذلك لم يدم طويلا، بحيث أنه بعد معركة سيرتا سنة 203 ق.م وإلقاء القبض على الملك سيفاقس ثم القضاء عليه بروما تعود المملكة للتقسيم والحروب من جديد بين شطريها الغربي والشرقي. وتستمر الأمور على ذلك حتى يوحدها من جديد الملك ماسينيسا .

وبالرغم من أنه تزوج من أميرة قرطاجية" **صوفونيزبة بنت صدر بعل**" إلا أنه كان مستقلا جدا تجاه بلاد زوجته. فقد كانت القوتان العظيمتان تتنافسان حول تحالفه، فالتقاؤه بسيبيون وأسد روبال جعل منه قوة ثالثة، القوة التي كانت تسود البحر المتوسط الغربي. أظهرت الحفريات الحديثة أن العديد من المدن الساحلية كانت منافذ ومراكز اقتصادية لماسيسيليا. فقد نظمت تجارة بين الألميريا والجزائر الغربية. فمن اسبانيا كانت تأتي الفخاريات ومنتوجات معدنية، وكانت تصدر العاج وأصداف بيض النعام.

لا يعرف نظام هذه المدن معرفة دقيقة. ولا شك أن بعضها كان مستقلا ذاتيا، والبعض الآخر كان مراكز تجارية مرتبطة كلية بقرطاجة والأغاليد. ومن المؤكد أن بورتوس سيجنواس (عند مصب تافنة) كانت تابعة كلية لسيفاقس. ربما كانت هناك مدن داخلية في مملكة سيفاقس؛ إذ أن أواني فخارية قرب الأصنام وقطعة نقدية في الظهرة تفترض ذلك.

وليست هناك معلومات أكثر حول التنظيم الإداري للملكة، إن دراسة النقود ذات النقود ذات اسم **سيفاقس** واسم ابنه **فرمينا**، تحمل على الاعتقاد بأن سيفاقس قد أشرك ابنه في سيادته.

ونعلم من **سترابون** Strabon أن ماسيسيليا كانت مملكة غنية جدا، فقد كانت تمول كثيرا بالفضة والجنود. كانت الحرب التي خاضها سيفاقس ضد قرطاجة ثم روما وضد ماسينيسا أصل انحلال المملكة.

ثانيا- مملكة ماسيليا:

كانت مملكة **ماسيليا** تمتد على الجزائر الشرقية وتونس الغربية. تمتد هذه المملكة فيما بين النهر الكبير غربا وأملاك الدولة القرطاجية شرقا ولم تكن حدودها قارة بل كانت تضيق أحيانا وتتسع أخرى، وأول أخبار وصلتنا عن مملكة الماسيل تعود إلى فترة غزو **أغاتوكليس** لبلاد المغرب القديم سنة 310ق.م؛ والذي تحالف في بداية الأمر مع ملك نوميدي من أجداد ماسينسا يدعى **إيليماس** ؛ كانت عاصمته **دوقة.** غير أن الملك اللوبي قد عدل عن ذلك التحالف لأسباب بقيت مجهولة. وهو ما دفع المؤرخين المحدثين وعلى رأسهم **جزيل وكامبس** يميلون إلى اقول أن **إيليماس** يكون من بين أقدم الملوك الذين عرفتهم نوميديا الشرقية. والملاحظ بناء على المؤرخين القدامى والمحدثين أن منطلقات الدولة الماسيلية كانت حول **المدراسن**، وهذا في شكلها القبلي، ويعود ذلك إلى نهاية القرن الرابع ق.م. وعندما توفرت الشروط الملائمة لتكوين الدولة؛ انتقلت بعد ذلك إلى سيرتا وهناك ظهرت في شكلها الملكي الذي عرفت به منذ القرن الثالث ق.م. وبدون منازع، فإن تأسيسها أسند إلى الأسرة الماسيلية التي ينتمي إليها ماسينيسان وأحفاده. ويشير المؤرخ "**محمد فنطر**" في كتابه "يوغرطة"، بأن جايا كان ملكا للقبائل الماسيلية ، غير أن المؤرخين يجهلون متى تبوأ

العرش، هل ورث أباه زيلالسن الذي وردت الإشارة إليه في نقيشة دوقة الثانية؟. أم أن **زيلالسن** لم يتول الحكم، بل كان قاضيا فقط؟ وبذلك يكون جايا أول ملك سهر على تأسيس النواة الأولى للدولة لنوميدية الشرقية. وقد انضم إلى جانب القرطاجيين في حروبهم ضد **سيفاقس**، وذلك سنة 213ق.م. ويلاحظ أن علاقة غايا في بداية الأمر، كانت حسنة حيث أنه بعث ولده **ماسينيسان** لتلقي العلم والمعارف الأخرى في مدينة قرطاجة. كذلك أمد القائد القرطاجي حنبعل بفرق من الفرسان النوميديين، ومن الدلائل الأخرى التي التي تظهر لنا علاقة غايا السلمية أيضا مع القرطاجيين أنه بعث بابنه ماسينيسان ليحارب في إسبانيا إلى جانب الجيش القرطاجي ضد الرومان. ويشير **" تيتوس ليفيوس"** أن جايا(ت.206ق.م) والد **ماسينيسان** كان قد حارب القرطاجيين قبل سنة 213ق.م؛ واقتطع منهم قطعة أرضية. ويذكر المؤرخ **تيتوس ليفيوس** بأن **غايا** ملك الماسيل كان قد استولى على مقاطعة قرطاجية أعادها الملك **سيفاقس** فيما بعد إلى القرطاجيين غير أن موقع هذه المقاطعة بقي مجهولا. أما ابنه **ماسينيسا** الذي حكم قرابة 56 سنة قضاها كلها في ترسيخ أسس الدولة النوميدية ومحاربة القرطاجيين ومجاملة الرومان.(تتفق الآراء على أن اسم **ماسينيسان** مركب من مقطعين: **"ماس"** وتعني السيد و**"نسن"** وتعني القوم أو الجماعة؛ وبذلك يكون المعنى العام: سيد الجماعة أو الجميع، ويمكن أن يعني أيضا **"ميس انسن"** أي ابن الاثنين؛ وهذا اعتمادا على اللهجة الشاوية المتداولة في الأوراس). عاش 90 سنة. (ولد سنة 238ق.م وتوفي سنة 148 ق.م؛ وهذا هو المتفق عليه لدى المؤرخين المحدثين). بوفاة والده **غايا** تأكد **ماسينيسان** أن النصر سيكون حليف الرومان، لذلك غير وجهة نظره في القرطاجيين محاولا ربط علاقات جديدة مع الرومان؛ شريطة أن يقفوا إلى جانبه في استعادة عرش آبائه وأجداده. لذلك انضم وأنصاره إلى الجيش الروماني واشتبكوا مع القرطاجيين وحليفهم **سيفاقس** معركة **السهول الكبرى** التي دارت فيها الدائرة على القرطاجيين وحليفهم؛ الذي لاذ بالانسحاب نحو عاصمته سيرتا. وانتهى الأمر بوقوع **سيفاقس** أسيرا في يد غريمه ماسينيسان في معركة **سيرتا الشهيرة** 203ق.م، وبذلك دخل ماسينيسان سيرتا واتخذها عاصمة له بعد أن سلم سيفاقس كأسير حرب للقائد الروماني **سيبيون** ولقيت **صوفونيزبة** حتفها. ثم حاول خلال سنوات (203-201 ق.م) احتلال كامل مازسيليا؛ وذلك حتى نهر ملوية بعد أن فر **"فرمينا"** بن سيفاقس نحو الجنوب. ثم اتجه شرقا لاسترجاع الأطراف الضائعة من مملكة آبئه وأجداده. فقد ضم حتى سنة 174ق.م ما يقدر بأكثر من سبعين مدينة تقع في شمال غربي تونس الحالية وكانت تابعة لقرطاجة قبل ذلك. وخلال السنوات التي تلتها استولى على كامل منطقة الخمير والأسواق وأصبحت مدينة لبدة الكبرى بليبيا تابعة له بعد أن كانت مركز تجاري قرطاجي. **وفي حوالي 152 ق.م كان ماسينيسا سيد كل تراب نوميديا، واختفت مملكة ماسيسيليا ؛ وهو ما أثار مخاوف الرومان. وقد مكنته هذه التوسعات من توحيد المملكة بصفة نهائية وإرغام قرطاجة على قبول الأمر الواقع الذي أصبح يتمثل في وجود مملكة نوميدية مترامية الأطراف محاذية لها.** وهو ما أثار نوعا من الغيرة ممتزجة ما بين الطمع والكراهية الناتجة عن السمو الجنسي لدى بعض الأوساط الرومانية. وخلفه في الحكم ابنه **مكوسن (مسيبسا)** الذي احترم التزامات والده مع الرومان وتعهداته معهم، ولذلك نراه يعارض كل ما من شأنه أن يحدث أي اختلاف معهم أو يسيء إلى الخط السياسي الذي رسمه والده. ويحتمل أن يكون أدرك نوايا روما التوسعية تجاه مملكته، ولم يرد أن يترك لها ذريعة للتدخل في بلاده، ولذلك ظل مواليا لها حتى وفاته؛ وقد استمر في تزويدها بالحيوانات مثل الفيلة والخيول وكذا القمح الصلب والفيالق العسكرية. بدأ الوضع يتدهور في نوميديا بعد وفاة الملك **مكوسن** والنزاع الذي شب على وراثة العرش النوميدي بين **يوغرطة** وابني عمه **هيمسال** و**أدهربعل**. غير أن **يوغرطة** ما لبث أن كشف للرومان عن أطماعه في الانفراد بالحكم بعد ازاحته ابن عمه **هيمسال**. وقد بدا يوغرطة في حروبه رجلا ذا دهاء سياسي له خبرة كبيرة بشؤون السياسة والحرب ليس في بلاد المغرب فحسب، بل وأيضا عالما بشؤون المشاكل السياسية والاجتماعية التي يتخبط فيها المجتمع الروماني. ولما اشتكى **ادهربعل** يوغرطة للرومان بعد مقتل أخيه، تدخلوا وقسموا المملكة بينهما، فأسند ليوغرطة القسم الغربي من المملكة الأكثر خصوبة وعمرانا من

القسم الشرقي الذي منح أدهربعل. ولم يمض وقت طويل حتى هاجم **يوغرطة** ابن عمه **أدهربعل**؛ فاستسلمت له مدينة سيرتا سنة 112ق.م؛ بعد حصار لم يدم طويلا. حيث أقدم على تعذيب ابن عمه حتى الموت، ولم ينج المناوئون له من الجالية الإيطالية المقيمة داخل المدينة. وهو ما سيدفع روما للانتقام لجاليتها وإعادة تقسيم المملكة على النمط السابق.

وإذ كانت أقل اتساعا من مملكة المازسيل، لكنها كانت تمثل وحدة أكثر، فسكانها كانوا أكثر ارتباطا بالأرض ومدنها أكثر عددا: **دوغا وتبسة وسيرتا.** ومن الصعب تحديد المكان الأصلي لقبيلة **ماسيليا**. فمن المعروف أن **إيليماس** قد حكم في ناحية **دوغا**، وأن **ماسينيسا** قد دفن في **الخروب** بالقرب من سيرتا وأن **الميدراسن** هو قبر شخصية عظيمة. يمكن اعتبار **التل الأعلى** أو **سيرتا** أو الناحية الواقعة إلى الجنوب، المكان الأصلي لأجداد ماسينيسا. كانت مملكة ماسيليا تشمل في الأصل ناحية **سيرتا** في الغرب، و**حوض باغرادا** مع **الدورسال التونسية** في الشرق. فهي ضيقة في الشمال، ويتسع التراب إلى الجنوب في الأراضي الشاسعة التي كان **الجيتول** البدو يتحركون فيها. بلغت هذه المملكة درجة عالية من الحضارة: أراضي مزروعة جيدا وتربية ماشية مشهورة ومدن عديدة، وعندما أعلن **ماسينيسا** ملكا بعد سقوط سيفاقس، وأخذ الإغليد العظيم مقاليد المملكة الماسيلية بيده أصبح مصيره مصير كل البربر. وقد اتضحت معالم مملكة الماسيليين واتسعت رقعتها بعد استرجاع ماسينيسا لمملكة آبائه وأجداده. ماسينيسا هو أكثر ملوك نوميديا شعبية. لقد كان عاهلا عظيما تجاوزت شهرته حدود مملكته، لقد حقق وحدة إفريقيا البربرية وجعل منها أمة حرة ودولة مستقلة ومزدهرة، وترك ذكرى إغليد عظيم موصيا الأجيال اللاحقة بالرسالة السامية التي غاليا ما حمل لواءها المقاومون الجزائريون " **إفريقيا للأفارقة**". أقام سلطته على الماسيل واحتل دول سيفاقس واعترفت به روما ملكا، كانت قوته نادرة حيث أنجب طفلا وهو في سن 56. كان له 44 ابنا ذكرا ومع ذلك كان يحبهم. خص ابنه مستنبعل بتربية يونانية، مبرزا بذلك اهتمامه بالثقافة الهلنستية وربما كان ذلك نوعا من المعارضة لروما. رغم أن هذا الأخير عاش في أحضان قرطاجة وعمل ضابطا في جيشها بإسبانيا إلا أن سياسة التردد من طرف مجلس الشيوخ القرطاجي؛ لا سيما أثناء الصراع بين المملكتين النوميديتين الشرقية والغربية جعل قرطاجة تفقد ماسينيسا وترغمه على الاتجاه إلى الخصم المتمثل في الرومان الذين كانوا يراقبون الأحداث من شاطئ شمال الحوض الغربي للبحر المتوسط.كان توسع مملكة ماسيليا منتظما تم في اتجاهين، نحو الغرب ضد الماسيسيل ونحو الشرق ضد قرطاجة. فبعد معركة زاما التي سقط خلالها سيفاقس، فتح ماسينيسا الجزء الأكبر من ماسيسيليا كان بين يدي ابن سيفاقس فيرمينا، الذي كان عليه أن يواصل مقاتلة روما وأن يوقع معها السلم بعد ذلك ابتداء من 201ق.م. نظم ماسينيسا؛ الذي اكتفى في أول الأمر بإعادة منطقة سيرتا، فتح كل المملكة.وفي سنة 152 ق.م كان ماسينيسا سيد كل تراب نوميديا، واختفت مملكة ماسيسيليا.

إن حوادث الحدود وتابعة المتمردين في الأراضي القرطاجية واحتلال أرض، كان قد سلمها سيفاقس للقرطاجيين، قد شجت ماسينيسا . فبين 174-172 ق.م انتزع القرطاجيين أكثر من 70 مدينة وموقعا، وفي سنة 162 ق.م استولى بصفة نهائية على مدن أمبوريا وليبتيس ماغنا على الخصوص، وفي حوالي 153 ق.م استولى على ناحية السهول الكبرى(الوادي الأوسط من مجردة). وفي سنة 150 ق.م انفجر الخلاف حيث طردت قرطاجة أنصار ماسينيسا من المدينة، وحاولن أن تدفع البربر إلى التمرد. وفي سن 88 قاد الإغليد العظيم النوميديين إلى النصر (سنة 150 ق.م). فكان على قرطاجة أن تقبل بالهزيمة وأن تدفع تعويض حرب. فاستغلت روما الفرصة، وقررت الإجهاز على قرطاجة، حيث قرر مجلس الشيوخ إنهاء المدينة؛ فأصاب القرطاجيين المحاصرين ذعرا. ولم يتحقق تخريب قرطاجة بسهولة، فدع الرومان ماسينيسا لكن دون جدوى. والعوة الثانية كانت من سيبيون الإميلي كان قد توفي سنة 148 ق.م. استمر الصراع حتى 146 ق.م، وفتحت قرطاجة، وقرر مجلس الشيوخ تخريبها واستأصلت المدينة من الوجود. حيث لم تسمح

روما لماسينيسا بالاستيلاء على أرض قرطاجة. وأوقفت الإمبريالية الرومانية العامل الوحدوي للعاهل البربري العظيم. ويكفيه ماسينيسا أنه كما أخبرنا **تيت ليف** قد أعلن أن إفريقيا يجب أن تعود للأفارقة وأن تتلخص من الأجانب سواء كان فينيقيين أو رومانا.

أصبحت المراكز التجارية القرطاجية القديمة موانئ نوميدية. وعاد العالم البربري إذن إلى البربر. لقد تجاوزت شهرة ماسينيسا حدود إفريقيا، فقد سمح له أسطوله الهام كذلك بإقامة علاقات تجارية مع أثين؛ ديلوس ورودس. فأقيمت على شرفه تماثيل في المدينتين الأخيرتين. لقد كانت روما تضع في اعتبارها أن لها قضية مع عاهل كبير. وبنية كسبه لقضيته، أعلنته ملكا في الوقت الذي كان فيه بعد ملكا، ونحته مملكة سيفاقس في حين كان قد فتحها بعد. لقد تنبأت روما بأن سيادة ماسينيسا ستكون سيادة استثنائية.

النظام الإداري:

رغم حكمه (ماسينيسا) الذي دام لمدة 56 سنة، لم يستطع أن على ما يبدو أن يؤسس لإدارة قوية وهياكل تنظيمية تجعل من دولته قوية. كما أنه كان يهتم بالسياسة التي تخدم الجوانب العسكرية. ذلك أن التركيبة القبلية للمجتمع النوميدي كانت تشكل عقبة في وجه التغيير وتحقيق المشاريع التي كان يطمح إليها الملك ماسينيسا. فالتنظيمات السياسية والإدارة في المملكة الماسيلية استمرت غير واضحة المعالم. وكل ما عثر عليه بعض قطع النقود أي المسكوكات. وقد أشارت بعض النقائش(نقيشة دوقة) إلى مجلس المواطنين، وحملت كتابة بعض المدن النوميدية . ويلاحظ وجود قرى تابعة إداريا للمدن الكبيرة. وكان لكامل القرى إدارة محلية خارجة عن التنظيم القبلي. كما يظهر وجود جاليات قرطاجية، ثم إغريقية وإيطالية وكان معظم أفرادها يعملون كحرفيين أو رجال دين. أما النظام القبلي فكان يعمل على العموم، لدى المتنقلين وأصناف المستقرين الذين كانوا يخضعون لكبار العقلاء ويعرفون عندهم برؤساء القبائل. حاول ماسينيسا أن يكون جيشا نظاميا أساسه القبائل الموالية له، وكان هدفه في البداية المحافظة على العرش ضد معرضيه الذين كانت تدفعهم قرطاجة ضده. ثم سخره بعدها للعمل على استقرار البدو، وذلك بشق الطرق والسدود، ثم بناء القرى وغرس الأشجار. وكان الجيش النظامي في المملكة النوميدية يقيم بالقرب من القصر الملكي. وفي العواصم الإقليمية حيث كان له مدربون خاصون قد يكونون في بعض الأحيان أجانب. وابتداء من فترة الملك يوغرطة استعان الجيش النوميدي بالمرتزقة اللوغاريين والتيراس. كذلك استخدم يوبا الأول في جيشه مرتزقة من الإسبانيين والغاليين. ويبدو أن الجيش النوميدي النظامي كان يجتمع في شكل سرايا يقودها ضباط. وقد أدبرتن الإدارة العسكرية من قبل موظفين وكتاب غالبا ما كانوا متشبعين في بداية الأمر بالثقافة البونية. وفي فترات الحرب كانت تضاف للجيش النظامي وحدات أخرى من القبائل النوميدية. أما الأسلحة فكانت في معظمها بونية، نذكر منها: الرماح والدروع، ثم السيف القصير والفؤوس. وقد استعمل النوميديون في حروبهم أيضا الفيلة والخيل.

الزراعة:

يخبرنا **سترابون** أن ماسينيسا حول عددا كبيرا من البربر إلى مزارعين وحضرهم. فمملكة ماسيليا كانت تملك مزارع فلاحيةعديدة، ووفرت الفتوحات أراضي غنية جديدة للملكة في بعض الجهات. وقد أثنى **بوليب** على سياسة ماسينيسا الزراعية، فقد اهتم الإغليد بالفلاحة فعلا، واستثمر الحقول الملكية، التي اتسعت بفضل الالحاقات بصفة معتبرة. فباستغلاله لحقوله قدم ماسينيسا بنفسه المثل لرعاياه وكانت النتائج التي تحصل عليها أصل شهرته فيما يخص الفلاحة. **فديودور** يخبرنا أنه ترلاك لكل واحد من أبنائه أرضا من 875 هكتار تقريبا متوفرة على كل ما هو ضروري للفلاحة: عتاد وماشية. إنه لبفضل السلم الذي ساد مملكته بصفة خاصة نمت الزراعة النوميدية في عهد ماسينيسا.

المدن:

تجمع المزارعون الجدد في قصبات منيعة. فضل ماسينيسا تمدين البربر، منح الحواضر الجديدة تنظيما مستلهما من تنظيم المدن الفنيقية بحكم أطلق عليهم اسم **سوفات**. ومن أهم المدن الرئيسة بالمملكة النوميدية: العواصم: سيرتا، سيغا، ايول، زاما...

التجارة:

أهمية التجارة مؤكدة بواسطة نمو النقود، والكثير من النقود تمثل شخصية ملتحية، وعلى الظهر حصانا طليقا راكضا أو ثائرا، والعديد منها يحمل MN اختزالا بمعنى ماسينيسا أو MKWSN بمعنى مسيبسا. كانت النقود قد ضربت قبل ماسينيسا، بقدر العدد الكبير من القطع التي وجدت حوالي قسنطينة. وكانت عملة من الرصاص والبرونز تلك التي استعملت في التجارة الخارجية. وكانت المبادلات تتم بالمقايضة أيضا، وكان السكان الريفيون يدفعون ضرائبهم ماشية وقمحا. أما التجارة الخارجية فقد هيأ لها ماسيننيسا نقودا من الذهب والفضة. وكان لمملكة ماسينيسا علاقات تجارية مع إسبانيا وقرطاجو وروما. بل وكانت لها علاقات حتى مع العالم اليوناني: رودس وأثينا وديلوس. فكانت نوميديا تصدر القمح بصفة خاصة. لقد جذب ماسينيسا تجارا يونانيين إلى حواضره. وخص **بوليب** باستقبال جيد جدا. حافظت إفريقيا على علاقات مباشرة مع الشرق دون المرور بقرطاجة، وذلك كان عمل ماسينيسا.

الدين: حتى المستوى الديني كان لماسينيسا تأثير كبير. ففي زمنه كانت المدن تعبد بعل حمون، والآلهة الفنيقية، أما الريف فكان يعبد فكان يعبد الآلهة والجنيات المحلية. وكان بعض الليبيين يعبدون الشمس والقمر أيضا. من المؤكد أن ماسينيسا لم يستطع أن يفرض معتقدات الإفريقيين، حيث وافق أن تعبد الآلهة الفنيقية في المدن، إذ هو الذي هدى النوميديين إلى عبادة السريس، العبادة الطبيعية ذات المشاهد الماجنة الموجهة إلى إنعاش الخصوبة الأرضية.

المساهمة الحضارية البونية في المملكة النوميدية"الامتزاج الثقافي":

بدخول الفنيقيين إلى شمال إفريقيا وتأسيسهم لمدينة قرطاجة، ثم تفاعلهم مع اللوبيين خرجت بلاد المغرب القديم من التقوقع الذي كانت تعانيه قبل ذلك؛ ما أتاح لهم الفرصة لأن تصبح مسرحا لنشاط اقتصادي وسياسي ثم ثقافي هام. ولعل الفضل في ذلك يعود إلى التقارب السلمي الذي استمر العمل به بين المجتمعين القرطاجي والمحلي منذ بداية اللقاءات الباكرة. إن ضياع مكتبة قرطاجة أثناء حرق المدينة سنة 146ق.م من قبل الرومان أعاق الاطلاع عن طبيعة تلك العلاقات الباكرة إلى حد كبير؛ لا سيما في الميدان الفكري الذي عبر عنه القديس أوغسطين بقوله:" **هناك أشياء هامة ومفيدة جدا في الكتب البونية**".

وقد استفاد اللوبيون القدامى من تلك الحركة الفكرية، حيث أصبحت بلادهم معبر حضارات تتأثر وتؤثر في الحوض الغربي للمتوسط وإفريقيا جنوب الصحراء.وهكذا أخذ اللوبيون الكتابة التي جاء بها الفنيقيون من بلادهم الأصلية ثم طوروها إلى كتابة **بونية** و**بونية حديثة**؛ استمر التعامل بها حتى سقوط الدولة النوميدية. كما نتج عن احتكاك اللوبيين القدماء بالفنيقيين العمل على اختراع كتابة تناسب أصواتهم عرفت **بالكتابة اللوبية**. وباحتكاك اللوبيين بالمراكز التجارية الفنيقية والمدن القرطاجية؛ والمدن القرطاجية على سواحل الحوض الغربي للمتوسط، كانوا قد اندمجوا في حياة **الاستقرار والتمدن** وبالتالي عملوا شيئا فشيئا على نقل **اللمسات الحضارية إلى داخل نوميديا موريطانيا**، مما ترتب عنه تسارع عملية الاستقرار والتحضر في مراكز وقرى دخلية تنامت هي الأخرى؛ حتى أصبحت حواضر كبرى للملوك النوميديين والموريطانيين. مع نقص الوثائق الكتابية التي تصف نظام الحكم داخل المدن النوميدية والموريطانية الداخلية ذات التأثير البوني؛ فإن تطبيق نظام **السوفيت**" أي القاضي الحاكم" كان قد تواصل العمل به حتى ما بعد تهديم

قرطاجة. وبدوره يستخلص الأستاذ **ج. فيفريي** من دراسته للنقوش التي تتطرق إلى **التنظيم البلدي بدوقة**؛ بأن هذا الأخير كان **متأثرا إلى حد كبير بما كان مطبقا في المدن القرطاجية** دون إهمال التقاليد النوميدية.

كانت نوميديا أثناء فترة الملوك النوميديين الأوائل ملتقى ثقافات متعددة ومتنوعة، وفي هذا الصدد واعتمادا على المخلفات النقوشية فإن اللغة الرسمية في المملكة النوميدية والموريطانية حتى ما بعد تهديم قرطاجة كانت هي **"اللغة البونية"**. وباللغة البونية أيضا؛ قدمت النذر للآلهة في المعابد، وكذا النصوص الإدارية التي عثر عليها. وقد توفرت تلك اللغة في كتابة الشواهد القبرية، وكذا العملة. وعليه يمكن أن نستنتج أن **اللغة البونية** كانت قد عمرت فترة طويلة سواء أكان ذلك في قرطاجة أو في الممالك النوميدية. وقد توفرت تلك اللغة في التخاطب في معظم الحواضر النوميدية، وهو ما أشار إليه القديس أوغسطينوس. وهناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن العاهل ماسينيسا؛ كان قد تبنى اللغة البونية لغة القصر والإدارة المركزية، وكذا المعاملات الرسمية للملك، ذلك أن الأخير كان يظهر احتراما للحضارة والثقافة البونية، وإليه يرجع الفضل الكبير في نشر الثقافة البونية داخل المملكة النوميدية، وهو بذلك لا يختلف عن جيرانه المازسيليين والموريين الذين كانوا يستعملون نفس اللغة. ومن مظاهر التأثيرات الفنيقية على المجتمع النوميدي رواج عبادة وتقديس بعض الآلهة القرطاجية كما هو الحال مع الإلهة **تانيت** والإله **بعل حمون**، إلى جانب تقليد القرطاجيين في الكثير من الطقوس الجنائزية...